# منهج أبو القاسم سعد الله في تحقيق التراث الجزائري المخطوط

أ.عبد الجليل رحموني
جامعة سيدي بلعباس

**تمهيد:**

إنَّ المتتبع لأعمال أبو القاسم سعد الله يرى بوضوح تاما اهتمامه بترجمة وتحقيق التراث الجزائري المخطوط، هذا الأخير الذي يعبر عن أصالة الأمة الجزائرية وإسهاماتها الحضارية في الحفاظ على ذاكرة أجيالها وتراثها وهويتها العربية الإسلامية، ومن هنا جاء موقف أبو القاسم سعد الله بضرورة الاهتمام بهذا التراث الجزائري المخطوط ترجمة وتحقيق، كونه وسيلة يسمح لنا للانطلاق نحوى المستقبل لبعث تراث جديد تعتز به الأجيال القادمة.

أولا: دوافع اهتمام أبو القاسم سعد الله في تحقيق التراث الجزائري المخطوط

لقد تعددت أسباب اهتمام أبو القاسم سعد الله[1] لتحيق ترثنا المخطوط، ولعل من أهمها هو الرد على المؤرخين الفرنسيين الذين اعتبروا أن تاريخ الجزائر في "العهد العثماني" هو أشبه بفترة ما قبل التاريخ، وينطبق هذا القول على المستشرق جاك بيرك « Jaque Berque»،[2] من أجل ذلك حاولوا جمع المادة التاريخية وإنْ كان أكثرها من مصادر غربية، وأرشيفات أوروبية والقليل منها عبارة عن وثائق محلية، ثم الاستحواذ عليها في أغلب الأحيان بطرق غير شرعية، مثل الوساطة التي أستعملها بيربروجر « Berbrugger»[3] في حيازة 800 مخطوطا بطرق ملتوية، أو التي تستر عليها[4] البارون دوسلان « Baron de Slane ».[5]

وما يثبت مدى اهتمام هؤلاء الفرنسيون بتراثنا المخطوط ما درسه وترجمه دي سلان « de Slane»، سنة 1857 "مخطوط بعنوان: "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" للبكري، وقد أعطاه المترجم العنوان التالي:( Description de L'Afrique Septentrionale)، هذا علاوة على ما حققه المستشرق شربونو« A .Cherbonneau » ، كما حقق المستشرق غورغيوس « Gorguos» مخطوطا بعنوان:" الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لأحمد بن محمد بن علي بن حنون الشرف، وقد سماه: معلومات حول باي وهران محمد الكبير« Notice Sur le Bey d'Oran » ،[6] زيادة على اهتمامهم بالمخطوطات

العربية فإنهم اهتموا بالمخطوطات البربرية فحققوا منها البعض، وكلفوا الجزائريين بتحقيق الجزء الآخر، كما اشتركوا في الترجمة و التحقيق معا، ومن يرجع إلى تأليف هنري باصيه " « H.Bassi » الدراسات العربية في الجزائر" سيدرك كثرة ما نُشر من مخطوطات في شكل كتب ووثائق. [7]

من أجل ذلك توافد إلى الجزائر عددا مُعتبرا من الرحالين الأوروبيين بهدف البحث و الاستكشاف، وتنمية قدراتهم العلمية، فقد اهتموا بدراسة المخطوطات، وحتى الآثار الرومانية، وكانت هذه الرحلات العلمية تُنظم وتُمول من طرف جمعيات علمية تقوم بنشر و طباعة أعمالهم، ونشرها ضمن نشاطها العلمي،[8] فقد تناولت أعمالهم دراسات حول العادات والتقاليد لمختلف الأعراق كالأتراك العثمانيين، والعرب، القبائل، و المزابيين، ووصف مُختلف أوجه الحياة اليومية.

لقد كتبوا في التاريخ والدين كالنقيب بوسوني « Boseni »، والنقيب دي نيفو « Deneveu »، وكذلك في الطبوغرافية و الإحصائيات وفي الآثار و التعليم الأهلي،[9] فقد ترك هؤلاء الضباط وراءهم أرشيفا ضخما مفيدا بحيث يمكن لأي باحث أن يجد معلومات حول مختلف ميادين البحث،[10] ومن هؤلاء الضباط الذين اهتموا بدراسة التراث المخطوط نجد بيليسي « Bellesi » خاصة عمله حول الشرق الجزائري.

ما دفع هؤلاء الفرنسيون إلى الاهتمام بتحقيق تراثنا المخطوط هو الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية، وكانت هذه الحضارة الأوروبية تحمل معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري، فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة وبالمفكرين الذين يدَّعون معرفة الجزائر و تاريخها.[11]

ومن الأهداف الفرنسيين للتحقيق هو التركيز على الآثار، والمنقوشات، و النميات الرومانية من أجل ربط منطقة شمال إفريقيا والجزائر خصوصا بأوروبا اللاتينية، وقد ساهمت العديد من هذه الدراسات، والبحوث في وضع برنامج تدريس أبناء المعمرين، والقلة المحظوظة من أبناء الجزائريين، والتركيز بالدراسة النقدية الجارحة على كل ما هو إسلامي، وإظهار صورة الفرنسي والمدنية الأوروبية على أنهما يشكلان الخلاص للجزائريين والمسلمين عامة، والتشجيع على استخدام اللهجة العامية الجزائرية في الكتابات الأدبية، كما جاء بعضها في المجلة الإفريقية ( La Revue Africaine).[12]

ومن الإدعاءات الزائفة لتبرير هذا الاهتمام بتراثنا بأن للرجل الأبيض رسالة عليه أن يؤديها للشعوب المتخلفة، وتشدَّق بهذا القول الكثيرون من رجال السياسة والفكر، ويعبر عن هذا الرأي الكاتب "وياث" « Wayath » في كتابه ( Ethics of Empire) يقول: " وليس لغيرنا وهو أن نحمل مشعل النور، والحضارة إلى داخل الأماكن المُظلمة في العالم، وأن نلمس عُقول أبناء أسيا وإفريقيا بالقيم الأخلاقية النابعة من أوروبا." [13]

ولذلك فإن جزءا كبيرا من المعرفة التي نملكها اليوم حول تاريخ الجزائر كانت بفضل هؤلاء الضباط العسكريين، رغم أن هذه المعارف هي وسيلة لتنفيذ إستراتيجية استعمارية وتحقيق ما يسمى الاستعمار الفكري، إذْ يعتبر المجهود الفكري مرحلة من مراحل الاستعمار والذي بدأ بالاحتلال ثم الاستعمار الإستطاني ثم الكتابة، فإيديولوجية الإرث الروماني تتماشى والغزو الفرنسي في الجزائر على الصعيد العسكري والعلمي والثقافي.[14]

ولعل هذا ما دفع أبو القاسم سعد الله إلى الظفر من أجل تحقيق التراث الجزائري وإعطائه الصورة الحقيقية له، و الحفاظ عليه من الضياع، لأن معظم هذه الوثائق و المخطوطات كانت أول ضحايا الغزو الفرنسي،[15] ومن هنا لا غرابة أن يتولى أبو القاسم سعد الله مهمة تحقيق المخطوطات، وأن يدعوا لتحريرها من أيدي الفرنسيين، وفي هذا الصدد يقول: " لو اقتصر احتكار الفرنسيين لتاريخ الجزائر على الفترة الاستعمارية لكان احتكارهم مبررا مؤقتا على الأقل، ولكن إذا أصبح احتكارهم عاما لكل تاريخ الجزائر من قديمه إلى معاصره، فذلك أمر يثير الدهشة وينذر بالخطر فقد أصبح اسم "قزال" علما على تاريخ الجزائر القديم، بل المغرب العربي كله، وأصبح "غوتييه" علما علي تاريخها الوسيط، واسم "غرامون" علما على تاريخها العثماني واسم "أجيرون" علما على تاريخها المعاصر، بل إن اسم "جوليان" أصبح ملتصقا بتاريخ الجزائر في جميع العصور، لأنه كتب على الجزائر وشمال إفريقيا وفي مختلف العصور، ولكن هل هذا الاحتكار أو الاحتواء بالمعنى السياسي ظاهرة طبيعية ؟"[16]

اعتبرت المدرسة التاريخية الفرنسية أن الجزائر دون تاريخ، وأن يؤرخوا لها كمنطقة جغرافية فقط وليس عن الجزائريين كسكان لهذه المنطقة، وهم بذلك يعتبرونها منطقة جغرافية من العالم تداول عليها الأمم وتعاقبت عليها الحضارات، وهذا ما يفسر اهتمامهم بالتأريخ للفنيقيين والرومان و الوندال والبيزنطيين والأتراك العثمانيين دون اهتمامهم بالجزائريين أنفسهم كقوة فعالة تؤثر وتتأثر، واشترك في هذه العملية الضخمة والخطيرة فئات كثيرة من

الكُتَّاب الفرنسيين (عسكريون ومدنيون) الذين حاولوا بكل ما أتوا من قوة طمس الحقائق لدعم أفكارهم و ادعاء اتهم الاستعمارية، وربما كان هذا سبب آخر دفع بالمحقق أبو القاسم سعد الله للتحقيق خاصة في الفترة العثمانية لدحض ادعاءات المدرسة التاريخية الفرنسية، [17] ولإحياء الوطنية العربية، وإعداد جيل جديد يفهم الإسلام ويهتم بتراثه وتاريخه الذي يمثل القاعدة الأساسية لا للتقدم فحسب، وإنما للحياة الحرة الكريمة من جهة أخرى، وذلك ما تجسد بخلق نظام دراسي عربي حر عصري، ومتفتح، وهذا في حقيقته برنامج سياسي، يكفي انه يقر بأن للجزائر تراث وتاريخ. [18]

ومن الأسباب التي دفعت أبو القاسم سعد الله إلى تحقيق التراث الجزائري هو الرغبة في الزيادة المعرفية التاريخية وإحياء التراث الماضي، وفي هذه المناسبة يقول:" إن الثقافة عنصرا لابد منه في أي حضارة، وكذلك لمعرفة مدى تطور المجتمعات لابد من الرجوع للميدان الثقافي بالدرجة الأولى"، [19] فالعودة إلى التراث في مفهوم أبو القاسم سعد الله لم تكن بنية الرجوع إلى الماضي أو الرجوع إلى الكتب الصفراء، والتشبث بماضيها كما يظن البعض، بل كانت العودة إلى كتب التراث بروح علمية وحضارية باعتبار أن المخطوط وثيقة تاريخية صبَّت عليها الدراسات النقدية و التاريخية، و العلمية في ضوء المعطيات الفكرية و الحضارية.

وباختصار فإن ما دفع أبو القاسم سعد الله إلى تحقيق التراث الجزائري المخطوط هو الرغبة الشديدة في تحرير الماضي من الاستنتاجات الخاطئة، والأحكام المتحيزة والنزاعات المريضة. [20]

**ثانيا: المنهج العلمي لأبو القاسم سعد الله في تحقيق المخطوط**

لقد تعامل الباحثون مع النصوص المخطوطة بطرق مختلفة، ويرجع ذلك إلى تباينهم في العناية بنص المؤلف، و خدمته في آن واحد، مما رتب على هذا التقديم النصي اختلافا شكليا في الأصول المعتمدة في التحقيق،[21] ووضعوا بعد تجارب طويلة قاعدة تعتبر من الثوابت في إخراج النص المخطوط إلى الوجود، والذي يمر بمجموعة من المراحل أهمها اختيار المخطوط، ثم البحث على نسخه، فمعرفة الباحث بالنسخ المتعددة أمرا ضروريا، وذلك بالرجوع إلى الفهارس، ثم تصنيف وترتب النسخ الأحسن فالأحسن، ثم نسخ النسخ و

التعريف بصاحب المخطوط، ووصف المخطوط مع شرح الألفاظ و المختصرات وتبيان القيمة العلمية للمخطوط.[22]

لقد سعى أبو القاسم سعد الله إلى التحقيق، و أكد أنَّ دراسة علم المخطوطات هي من فعل مختص أي أنها تعتمد على مناهج علمية، وتتطلب الصبر و الأناة، والدقة والموضوعية والأمانة العلمية، فنلاحظ أن منهجه في التحقيق يرتكز على ثلاث أقسام أساسية وهي:

**القسم الأول:**

يقوم بالتعريف بصاحب المخطوط وتوضيح عصره، مع وصف المخطوط، ثم يذكر الطريقة التي اتبعها في تحقق هذا المخطوط، ويعرض قائمة المصادر والمراجع المعتمدة، ثم يقوم بإبراز القيمة العلمية للمخطوط المحقق.

**القسم الثاني:**

في هذا القسم يقوم أبو القاسم سعد الله بعرض محتوى أو ما جاء في المخطوط من معلومات، ولا يكتفي بذلك بل يعزز ما قدمه بالتعليقات و الهوامش، وتبيان الهوامش وشرح ما غمض من عبارات مصححا في بعض الأحيان ما يراه قابلا للتصحيح دون الإخلال بالمادة الأصلية أو تحريفها عن أصلها.

**القسم الثالث:**

وفيه يثبت المصادر و الفهارس، حيث يخصص جزاء للأعلام، وآخر للأماكن، وقد يعرض ملحقا للجداول والرسوم، ثم يختم بفرس للموضوعات. [23]

والجدير بالذكر فإن أبو القاسم سعد الله كان يكثر من قراءة المخطوط قبل تحقيقه، وهذا ما يؤكده بقوله:" ليس غريباً أن يقول أحد المحققين إنه قرأ المخطوط الذي يحققه عدة مرات قد تصل إلى العشر، ذلك أنني شخصيا قرأت ( منشور الهداية) ربما أكثر من ذلك ووصل بي الأمر إلى تلخيصه في بطاقات كُنت أحملها معي أنى ذهبت للبحث، .... قرأته إذن عدة مرات مستفيدا ومحققا ومراجعا لعمل الراقن، ومقارنا ومصححا، قرأته وحدي وقرأته مع غيري، خصوصا مع الشيخ محمد الطاهر التليلي الذي قرأته معه من أوله إلى آخره للدراية والاستفادة، كما قرأته مع زوجتي، ومن خلال تلك القراءات الكثيرة استوعبت مادته وعلقت عليه بما وسعني الجهد والمعرفة".[24]

انطلاقا من هذه الشهادة يتبين لنا بوضوح تاما أن أبو القاسم سعد الله كان يدقق في مسألة التحقيق بحثا عن مصادرها، كأنه يبحث عن أصل الخطأ أهو نتيجة جهل صاحب المخطوط نفسه بقواعد اللغة والإملاء؟، أم هو عمل الناسخ، وقد وصل إلى نتيجة مفيدة جدا مفادها أن ظاهرة شيوع الأخطاء في رسم الكلمات ترجع إلى تعدد النُّساخ وتداولهم على نسخ عمل واحد. [25]

والجدير بالملاحظة أن أبو القاسم سعد الله كثيرا ما كان يعترضه مجموعة من الصعوبات أثناء التحقيق منها: نسب بعض المخطوطات العربية لغير مؤلفيها، إما لفقد الأوراق، وإما لانطماس العنوان، وإما لداع من دواعي التزييف، وإما لجهل قارئ ما وقعت إليه نسخه مجرد من عنوانه، وإما بسبب الخوف من العقوبة، والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو: كيف تعامل أبو القاسم سعد الله مع هذه الحالات من النصوص؟ [26]

كان موقف أبو القاسم سعد الله مع هذا النوع من المخطوطات العربية القديمة، التي أغلبها توجد كنص واحد متصل دون عناوين ولا فقرات أحيانا، ولا فواصل أو نقاط، أنه ألتزم بتقسيم النص إلى فقرات يخضع لتقدير المحقق، كأن تقوم الفكرة على حدث بارزا، أو فكرة جديدة أو خبر ،[27]

كما نلاحظ أنَّ أبو القاسم سعد الله يقترح عناوين مناسبة لكل فكرة يعالجها المخطوط، ثم يقوم بوضع التعاليق إذا دعت الضرورة لذلك، وغالبا ما يلجأ إلى الخبرات والمهارات المتعددة لكي يستطع فك الغموض، كما أن نصوص المخطوط كثيرا ما تتطلب الرجوع إلى خرائط الجغرافيا، وكتب التاريخ و التراجم و الفقه وغيرها من العلوم و المعارف، كما كان يلجأ إلى المساءلة الشفوية ممن يتوسم فيهم المعرفة والخبرة في مجال المخطوطات.[28]

ولمعرفة منهج أبو القاسم سعد الله بشكل واضح يجب الرجوع إلى ما حققه لنكتشف ذلك و نستقرأ بعض الأمثلة على ما تم تحقيقه، ففي كتاب" منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم و الولاية" نلاحظ أن أبو القاسم سعد الله في هذا التحقيق قد احتفظ بالعناوين الجانبية، كما حافظ على ما فيها من تلقيب، ثم قام باستخراج محتويات الكتاب وجعلها في شكل عناوين فرعية، لأن المؤلف ذكر أخبار استطرادية ضمن الخبر الرئيسي الواحد، فوجب فصل كل مادة على حدة، حيث أن في هذا المخطوط بلغت التراجم المذكورة فيه حوالي 75

ترجمة، لكن إذا أضيفت إليها التراجم المكررة قد تزيد على هذا العدد، كما جمع الهوامش المشار إليها باستثناء كلمات ينبه إليها أحيانا على يمين أو يسار الورقة.

أستعمل أبو القاسم سعد الله عبارة " كذا في الأصل" أو "كانت في الأصل كذا"، أو ينبه على الزيادة بوضعها داخل قوسين، أكمل المحقق أبو القاسم سعد الله الفراغات التي تركها المؤلف أو الناسخ، كما قام بتقسيم المتن إلى فقرات يقتضيها المعنى، ونبها بالانتقال من صفحة إلى أخرى في أصل المخطوط وذلك بإثبات رقم الصفحة مرفقا بالخط المائل هكذا ( / )، وختم بفهارس مع وضع قائمة لمصادر التحقيق.[29]

أم في تحقيقه لمخطوط " تاريخ العدواني" نلاحظ أنه قسم العمل إلى ثلاث أقسام، بدءا بصاحب المخطوط وعصره، ثم وصف المخطوط و المصادر المعتمدة، ثم قام بعرض المخطوط معززا بالتعليقات والهوامش، مصححا في بعض الأحيان متى دعت الضرورة لذلك دون الإخلال بالمادة الأصلية، ثم ينتقل إلى تثبيت المصادر و الفهارس.

لقد واجهت أبو القاسم سعد الله مجموعة من الصعوبات أثناء تحقيقه لهذا المخطوط خاصة فيما يتعلق برسم الكلمات، لذلك لجأ في كل مرة إلى رسم الجداول لتحديد الخطأ، والتنبيه إلى صورته الحقيقية ليستقيم المعنى، ومن هنا استنتج أبو القاسم سعد الله أن صاحب المخطوط كان بعيدا عن التأثير الخارجي، و أن لغته هي لغة بني هلال أوبني سليم.[30]

نأخذ مثال ثالث على ما حققه سعد الله، وليكن هذه المرة مخطوط " لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب والحال" لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، وقد اتبع في ذلك تقسيم النص إلى فقرات حسب المعنى محافظا على العناوين الأصلية، أما العناوين الفرعية فهي من وضع المحقق، وكذا التنقيط و الفواصل، كما حافظ على كل المسائل الفرضية و الفلكية.[31]

أستنتج أبو القاسم سعد الله من تحقيق لهذا المخطوط أن أسلوب ابن حمادوش في الرحلة أسلوب بسيط جدا، وعباراته فصيحة إلا أنه كثير ما يسوق الجملة سوقا عاميا لا تخضع لقواعد الإعراب،[32] كما تشكو الرحلة من الوحدة العضوية والانسجام، ذلك أن طريقة عرض الحوادث كثير ما يتخللها الانتقال والاستطراد،[33] مما يعني أن أبو القاسم سعد الله قد تعب كثيرا في تحقيق هذه الرحلة، ويكفي أن نستمع إليه يشكو ثقل المهمة و مشاق التحقيق بقوله:" لو قيل عن التعب الذي سيصادفني من جراء تحقيق هذه المخطوطة قبل الإقدام عليه

لما صدقته أو لما أقدمت أصلا، و على كل حال فقد أصبحت الآن لا اغبط المحققين للنصوص القديمة تحقيقا علميا لأنهم بدون شك يعانون الكثير ويربون القليل، وكان جزاؤهم هو رضي النفس، و الوفاء لصاحب النص، وراحة الأجيال".

**ثالثا: نماذج من المؤلفات التي حققها أبو القاسم سعد الله**

من أهم ما حققه أبو القاسم سعد الله:

كتاب: حكاية العشاق في الحب والاشتياق، وهو للأمير مصطفى بن إبراهيم، 1977م

كتاب: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، لعبد الكريم الفكون، 1987.

كتاب: رحلة ابن حمادوش الجزائري، لعبد الرزاق بن حمادوش المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحال"، 1983.

كتاب: رسالة الغريب إلى الحبيب، لأحمد بن أبي عصيدة البجائي، 1991.

كتاب: مختارات من الشعر العربي جمع المفتي، لأحمد بن عمار، 1991

كتاب: تاريخ العدواني، لمحمد بن محمد بن عمر العدواني، 1996.

وانطلاقا مما حققه أبو القاسم سعد الله لا يمكن التحدث هنا عن جميع المؤلفات التي حققها، لكن هذا لا يمنعنا بكل تأكيد من الإشارة إلى بعض النماذج لدراسة هذا الموضوع، وعليه سنقتصر الحديث هنا على ذكر ثلاث نماذج مما حقق، وذلك بالتعريف بالمؤلف وكتابه، مع إبراز القيمة العلمية للكتاب:[34]

كتاب: "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"

**<u>التعريف بالمؤلف</u>:**

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، أديبا نحويا ومحدثا جمع بين علمي الظاهر والباطن، كان عالم الجزائر في عصره من أهالي قسنطينة،[35] كان إماما بالجامع الأعظم وخطيبه، وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، أمتحن زمان الفتنة الواقعة بالبلد،[36] توفي في قسنطينة بسبب الطاعون أما عن آثاره- رحمه الله- له " شرح على البسط" و " التعريف في علم التصوف للمكودي" ، فرغ من تأليفه سنة 1048هـ، وشرح على شواهد الشريف على الأجرومية، و " محدد السنان في نحور إخوان الدخان"، وديوان في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وشرح جمل المجراد ومخارج الحروف من الشاطبية، وتأليف في حوادث فقراء الوقت وهو الكتاب المسمى: "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم

والولاية"،[37] وتشير المجلة الإفريقية إلى أن ابن الفكون كان له مخطوط احتوى على أخبار تاريخية موثقة وعلى أدق التفاصيل لتاريخ مدينة في قسنطينة خلال العهد العثماني.[38]

**وصف المخطوط:**

يقع هذا المخطوط في 294 صفحة، مقياس 14.5 في 7.4 وهو مكتوب بخط جيد عموما، وهو مرقم ترقيما متسلسلا، أرقام الصفحات مكتوبة بالأرقام الهندية، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله أن النسخة التي أستعملها بكثرة هي نسخة مصورة، كانت في حوزة الشيخ المهدي البوعبدلي بخط يده في ظهر الصفحات المصورة، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله الصفحات المكتوبة بخطه وهي: 39، 158، 159، 164، 165 بالإضافة إلى صفحة العنوان. [39]

**التعريف بالكتاب:**

لقد ذكر أبو القاسم سعد الله أن صاحب المخطوط قد ألفه على فترات في شكل مذكرات، ولم ينتهي من تأليفه إلا في سنة 1635، وهي السنة التي توفي فيها والده، ويستدل الدكتور أبو القاسم سعد الله على ذلك ما يوجد به من تكرارات واستطرادات ومواضيع متداخلة في الموضوع الواحد، ثم الانقطاع و العودة إلى الموضوع من جديد، وكثرة التراجم التي تعرض إليها، وذلك لم يكن مقتصرا على قسنطينة، ولكن حتى بالنسبة للأقاليم و الأرياف الأخرى.[40]

**القيمة العلمية للكتاب:**

يحتوي هذا الكتاب على معلومات هامة حول الحياة الاجتماعية في قسنطينة، كما يحتوي علم معلومات تخص العلاقات العائلية بعضها البعض، وعلاقة العائلات بالسلطة المحلية، و المناصب المفتوحة أمام العلماء و الوظائف المخزنية ونحوها، وهو بهذا الصدد يذكر الفتن التي عرفتها المدينة، وامتحانات السلطة للعلماء وأرباب الوظائف، ويعلن المؤلف ثورته على من يسميهم الحضر لنفاقهم واعتمادهم على الشرف وحده مما يراه نوع من الأخلاقيات المنحلة، وفي الكتاب حديث عن بعض العلماء من المغرب وتونس والمشرق و الجزائر، كما أشار إلى الصلات بين المدينة والريف و الأولياء و شيوخ العقائد، بن العطار محمد بن مبارك، وقد أكثر ابن الفكون من الأخذ عن أحمد زروق، وعبد الرحمان الأخضري بالإضافة إلى الغزالي وابن العربي.[41]

**كتاب: "تاريخ العدواني"**

**تعريف المؤلف:**

تميز العدواني بثقافته الواسعة، ويستدل بالقرآن كثيرا ويحفظ الأخبار، ويروى الطرائف كما له رصيد لغوي ويحفظ الأمثال الشعبية، كما له ثقافة واسعة في الجانب الصوفي، وكان يمتاز بالزهد، وفي المخطوط ما يدل على أن العدواني كان قادري الطريقة،[42] وعالم صوفي تجول في الشلف والأوراس، وبسكرة وورقلة، كما كان من الفقهاء الذين ذاقوا مرارة التعسف والاستبداد. [43]

**وصف الكتاب:**

يعتبر هذا الكتاب موسوعة، حيث نلاحظ أنه يجمع بين التاريخ و الأدب والقصص العجيبة، كما يحتوي على أخبار ونوادر وكرامات الأولياء و الصالحين، و المناقب وعلاقة المريد بشيخ الطريقة فهو مصدر مهم ومرجعية أساسية لعلماء الاجتماع و التاريخ.

وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله: " عندما نأخذ في مطالعة كتاب العدواني سنجد أنفسنا مستفيدين فائدة جمى، ولكننا أيضا سنشعر أحيانا كأننا نقرا رواية مسلية، أو فصلا ساذجا من كتاب، وسنسبح معه في خيال الصوفي، وسنعتبر به في الحكم على الأحداث السياسية وصانعيها وسيكتشف كتاب العدواني على اشراقات ومكاشفات الصوفية، كما لا نتوقع أن تاريخ العدواني سيلبي مفهومنا اليوم للتاريخ، ففي عصره لم يكن التاريخ قد فصل عن بقة العلوم الأخرى، وإنما كان متداخلا مع الأدب و الجغرافية و الرحلات والتراجم".[44]

**القيمة العلمية للكتاب:**

لقد أجمع المحققين على أن كتاب تاريخ العدواني الأصلي مفقود، وما بقي منه هو عبارة عن ذكريات مختصرة عن تاريخ سوف وطرود وعدوان و الشابية و الحنانشة و الذواودة، وغيرها من المواضيع المرتبطة بالذكريات الشعبية، إلا أن هذا الكتاب قدم خدمة جليلة للتاريخ الجزائري، حيث أنه يحتوي على مادة مهمة حول المناطق الجزائرية، كما أن الكتاب يشكل مادة ثرية لدراسة العائلات و القرى و الحواضر،[45] كما أن العدواني شاهد على السلطة في الجزائر وتونس، وشارك في العلاقات التي ربطت أمثاله من العلماء و الشيوخ و الصلحاء بالقبائل في صحراء سوف و الجريد التونسي، كما كان ناقدا للسلطة القائمة في تونس واتهمها بالانحياز إلى النصارى والاعتماد في تعاملهم المالي الربوي مع يهود البلاد على حساب الرعية الفقراء.[46]

**كتاب: "لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و الحال"**

**تعريف بمؤلف الكتاب:**

ولد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري في مدينة الجزائر سنة 1695، وعاش إلى أن تجاوز التسعين حسب بعض الباحثين، ويقول أبو القاسم سعد الله يجهل تاريخ وفاته، لكن يرجح أنه توفي بالمشرق بين 1197-1200هـ، وقد نشأ بمدينة الجزائر، وتعلم بها العلوم الشائعة، وكان من أسرة متواضعة الحال تلقب بأسرة الدباغ لأن عائلته كانت تشتغل بالدباغة.[47]

حاول عبد الرزاق أن يجمع بين التجارة و العلم ففشل في التجارة، وتعلق بالعلم بمعناه الواسع، فكان موسوعيا فأهتم بعلوم الدين واللغة، تنقل ابن حمادوش في العالم فحج عدت مرات ورحل إلى المغرب الأقصى ومصر،[48] ويرجح أبو القاسم سعد الله أنه درس في المغرب على أحمد الورززي، ومحمد البناني، وأحمد السرائري، وأحمد بن أمبارك، وتتلمذ في الطب على عبد الوهاب أدراق وغيره، كما عاصر ابن حمادوش علماء بارزين في الجزائر مثل أحمد بن عمار، وابن علي، و الحسين الورثيلاني، فهو إذن من نتاج القرن 18م الذي عُرفت فيه الحركة الثقافية نشاطا بارزا،[49] فقد ترك ابن حمادوش عدة تأليف في الفلك و الإسطرلاب و الربع المقنطرة.[50]

**وصف المخطوط:**

لقد أكد أبو القاسم سعد الله أن النسخة المتوفرة لهذه الرحلة توجد في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 463، وهي في شكل مسودة، وهي تخلوا من الديباجة، وليس فيها بيان الغرض من التأليف، و الدافع إليه وخطته، وسبب اختيار العنوان ونحو ذلك مما جرت عليه عادة المؤلفين.[51]

وقد ذكر أبو القاسم سعد الله بأن النسخة التي يملكها من الرسالة تكاد تكون منسوخة طبق الأصل، لأن التقليد في النقل لم يشمل الألفاظ و العبارات فقط، ولكنه شمل أيضا التبويب، فقد كان ابن حمادوش أمينا كل الأمانة في نسبة العمل الأصلي للمراكشي، و الحق أن ابن حمادوش قد اعترف منذ البداية بأن ما جاء به ليس له، وإنما هو ما كان يبحث عنه ولم يجده.[52]

**قيمة الرحلة:**

لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري رحلة تسمى "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، وهي في عدة أجزاء، ولكن الموجود منها حتى الآن هو الجزء الثاني وهو بدوره مبتور، ولكن الجزء الذي عثر عليه من رحلته لا يعرض لحياة الجزيرة العربية بل يعرض إلى حياة المغرب الأقصى.[53]

وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله:" أقدمنا على تحقيق رحلة ابن حمادوش لأنها في نظرنا جزء من تراث الجزائر العربي الإسلامي، وكتبت في عهد طالما رمي بالجمود و التخلف، كما تحفل بمعلومات عن عصره سياسيا وفكريا.[54]

كما تحتوي الرحلة على معلومات في غاية الأهمية عن ظروف الحياة الصعبة التي عاشها هذا العالم، و التي جعلته يصل إلى أدنى دركات التهميش في مدينة الجزائر، فقد سافر إلى المغرب مبتغيا التجارة ومؤملا في تحسين أوضاعه العائلية المتردية، وقد علل سبب رحلته كما جاء في بعض أبيات قصيدة له:

كرها، وما أنا لديكم بالفخـور ... لكن للدنيا يقودني الغـرور
و حبها فيها فيما علمتم كالفجـور ... لأجلها ركب الأحمق البحـور
لكن إبليس استعان بالنـــسا ... لما رأى كيـده خاب في عسى
فنال ما يبغي من الرجـــال ... بشبكة النسا من الأمالـــي.[55]

وفي نهاية هذه الورقة البحثية نستطيع القول: أن الدكتور أبو القاسم سعد الله قد وهب نفسه وحياته من أجل التحقيق، وقدم الغالي و النفيس للدفاع عن التراث الجزائري المخطوط، وبعثه إلى الحياة، وما قام به قد ساعد كثيرا في إبراز الدور الحضاري و الثقافي للجزائريين، وبالتالي ترقية الفكر الإنساني للمجتمع الجزائري، ومن هنا يمكن القول أن أبو القاسم سعد الله قد سخر كل طاقاته وجهوده العلمية و المعرفية للتصدي لكتابات المدرسة الفرنسية التي عملت على تزييف التراث الجزائري، إذن ما دفع سعد الله إلى تحقيق التراث الجزائري المخطوط هو الرغبة في تحريره من الأوهام والاستنتاجات الخاطئة، والأحكام المسبقة بأسلوبه ومنهجه الخاص، سعياً منه في تنشيط الدراسات التاريخية، وتشجيع الإنتاج التاريخي، الذي يتصل الكثير منه بالعهد العثماني، حتى أصبح من العسير اليوم الخوض في تاريخ الجزائر العثمانية دون الرجوع إلى ما ترجمه أو حققه أبو القاسم سعد الله.

**الهوامش:**

[1] أبو القاسم سعد الله: من مواليد 1937 بقمار بواد سوف شاعر، وأديب، ومؤرخ جزائري يعرفه الوسيط المثقف بشمال إفريقيا حق المعرفة من خلال مؤلفاته العديدة، توفي في 18ديسمبر 2013 بعد مرض عضال ألزمه الفراش من مؤلفاته: كتاب الحركة الوطنية الجزائرية بستة أجزاء، وكتاب تاريخ الجزائر الثقافي من تسعة أجزاء وكتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر من خمس أجزاء. ينظر: أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 8-9.

[2] جاك بيرك « J.Berque » (1910-1995): بعد تخرجه من مدرسة باريس نزل بالمغرب لدراسة علم الاجتماع، ثم عين مديرا لقسم البحوث الفنية و التجريبية في سرس الليان بمصر 1953-1954، ثم مشرفا على مركز الدراسات العربية في بكفيا بلبنان 1955، ثم أستاذ في كرسي التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر في معهد فرنسا فمدير معهد الدراسات العليا، من آثاره الإسلام من الأمس إلى الغد باريس 1961، والإغريق وعلماء الكيمياء، العرب و اللغة العربية من الإنسان إلى التاريخ، و علماء تونس في ماضي و تاريخ الرباط، ووثائق عن تاريخ المغرب الاجتماعي. ينظر: عبد السلام البكاري-الصديق بوعلام، الشبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، ط1، منشورات الاختلاف، الرباط، 2009، ص354.

[3] وُ لد أدريان بيربروجر « Berbrugger (A) » في باريس 11مايو سنة 1801، فقد اهتم منذ البداية بدراسة علم الآثار القيمة، وقد تميز بالذكاء والخبرة،وبعد ما أكمل دراسته في مدرسة شارلمان الثانوية التحق بمدرسة شارت «Ecole des Chartes » العليا، وفي سنة 1832 كُلِّف بمهمة البحث عن القطع الأثرية التي يرجع عهدها إلى زمن احتلال فرنسا في القرن 15م، و بعد ذلك بسنتين سافر إلى الجزائر حيث شغل وظيفة كاتب للوالي العام كلوزيل « Kelouzil »، قبل أن يوافق فالي Vali » في غزوته لقسنطينة، ومن مدينة قسنطينة عاد الكاتب حاملا معه عددا كبيرا من المخطوطات العربية، لمعرفة المزيد حول هذه الشخصية ينظر: عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر

العثمانية 1520-1830م، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2014-2015، ص 53.

(4) سعيدوني ناصر الدين،" الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، مجلة الثقافة، ع45، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1978، ص 36.

(5) البارون دوسلان « Le Baron de Slane » (1801-1878): ولد في بلفاست بإيرلندا يوم 12 أفريل 1801، جاء باريس سنة 1830، وانضم الى تلاميذ المستشرق دي ساسي، وتجنس بالجنسية الفرنسية في بداية الأربعينيات من القرن 19م، في فرنسا تعلم اللغة العربية خاصة اللهجة الجزائرية، كلف في الفترة مابين 1843-1845 من الحكومة الفرنسية بمهمة خاصة في الجزائر وفي قسنطينة، وتوجت هذه المهمة بكتابة تقرير مهم ضمنه أهم المكتبات في قسنطينة وعدد المخطوطات وأسماء أهمها في الجزائر وقسنطينة. ينظر: إبراهيم لونيسي، بحوث في التاريخ الاجتماعي و الثقافي للجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، دار هومة للنشر، الجزائر، 2013، ص ص 138-139.

(6) صاحبي محمد، "المجلة الإفريقية دراسة إحصائية بيبليوغرافية للمخطوطات العربية"، مجلة الحوار المتوسطي، ع5، دار الأصول، سدي بلعباس، 2013، ص ص 113-114.

(7) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج6، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 58.

(8) أيت حبوش حميد، المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني على ضوء المصادر الأوروبية 1519-1830، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2008-2009، ص 19.

(9) بومزو عز الدين، الضباط الفرنسيون الإداريون في إقليم الشرق الجزائري إرنست مرسييه نموذجا، جامعة قسنطينة، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2007-2008، ص 28.

(10)Letourneau (R) « L'Algérie de Pusis 1830 », R Af, n°100, Alger, 1956, pp 144-190.

[11] أبوالقاسم سعد الله، "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأصالة، ع 15/14، منشورات شؤون الدينية، تلمسان، 2011، ص 9.

[12] صاحبي محمد، المرجع السابق، ص 110.

[13] السباعي مصطفى، الإستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، ط 1، دار السلام، مصر، 1998، ص 22.

[14] بومزو عز الدين، المرجع السابق، ص 28.

[15] أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 89.

[16] بلغيث محمد الأمين، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه، دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2014، ص 75.

[17]عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520-1830، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، 2014-2015، ص 62.

[18] أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية.....، ج3، ص 92.

[19] أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية.....، ج2، ص 416.

[20] شرشال عبد القادر، "أبو القاسم سعد الله محققا وناقدا"، دورية دراسات جزائرية، ع 8/7، وهران، 2011، ص69.

[21] إسماعيل بركات، "منهج تحقيق التراث الجزائري بين عمل المحقق وتطوير صناعة التحقيق نوازل مازونة أنموذجا ( تمحيص و تصحيح التحقيق)، مجلة رفوف، ع6، أدرار، مارس 2015، ص 284.

[22] نفسه، ص 288.

[23] شرشال عبد القادر، المرجع السابق، ص 70.

[24] شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من أعى العلم و الولاية، تقديم وتحقيق: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 22.

[25] هارون محمد عبد السلام، تحقيق النصوص ونشرها، ط 7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص 100.

[26] عابد سليمان المشوخي، أنماط التوثيق العربي في القرن 9 هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1994، ص 165.

[27] هارون محمد عبد السلام، المرجع السابق، ص 100.

[28] شرشال عبد القادر، المرجع السابق، ص 71.

[29] شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 23.

[30] شرشال عبد القادر، المرجع السابق، ص 72.

[31] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة إبن حمادوش الجزائري: حياته وآثاره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 18.

[32] ابن حمادوش عبد الرزاق، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و الحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 21.

[33] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة.....، المرجع السابق، ص 18.

[34] شرشال عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 73-74.

[35] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص 254.

[36] شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص،48.

[37] عادل نويهض، المرجع السابق، ص 254.

[38] Feraud (L), « E poque de L'établissement des Turcs à Constaine », R .Af, n°10, Alger, 1866, p 185.

[39] شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص ص 17-18.

[40] نفسه، ص14.

[41] نفسه، ص ص 15-17.

[42] العدواني محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تقديم: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 21.

[43] بلغيث محمد الأمين، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير، الجزائر، 2006، ص 178.

[44] بلغيث محمد الأمين، الشيخ بن عمر العدواني: مؤرخ سوف و الطريقة الشابية، ط2، دار كتاب الغد للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ص ص 30-31.

[45] بلغيث محمد الأمين، دراسات في تاريخ.....، المرجع السابق، ص ص 177-179.

[46] بلغيث محمد الأمين، الشيخ بن عمر العدواني.....، المرجع السابق، ص 29.

[47] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830،ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998. ص 425.

[48] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 172،

[49] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر.....، ج2، ص 426.

[50] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في.....، ج4، المرجع السابق، ص 173.

[51] ابن حمادوش عبد الرزاق، المصدر السابق، ص 14.

[52] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في.....، ج4، المرجع السابق، ص ص 173-174.

[53] نفسه، ج1، ص 182.

[54] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة.....، المرجع السابق، ص 18.

[55] حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدي للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص 259.